التأثيل الدلالي وتجلياته في المعجمية العربية القديمة

بن نابي قدور
طالب دكتوراه
أ.د عبد الملك مرتاض
جامعة وهران 1

تجعل التّعريفات الأولى للتّأثيليّة هذا العلم قائما على أحد أمرين: إمّا "بيان الأصل المفترض أن يكون أثلة (Etymon) الكلمة، و إمّا [تحديد] العناصر التي أدت إلى تكوين المفردة."(1) و هو ما يجعلها من فروع المعجميّة (Lexicologie) و إن امتدّ بحثها إلى معرفة الفصائل اللّغويّة المختلفة التي انحدرت منها لغة من اللّغات ، مما لا يسوّغ اعتبارها من اهتمامات اللّسانيّات المقارنة ،كما زعم الباحث التّونسيّ رشاد الحمزاويّ(2)، ما دامت مَحَجتُها الآثال والأصول الأولى . وما جنوح التأثيليين إلى مقارنة ظواهر اختلاف الألسنة إلا سبيل إلى استنباط أقدم الاستعمالات وأمَّات اللغات ، وفي هذا توسيع لمجال بحثهم بما ينبغي له .

و من هنا فلا جرم أن يتبوأ التاريخ من التّأثيليّة منزلا ؛ فهو ثالث الأعمدة التي تُبنى عليها مع تأصيل المفردات وتبيين عوامل وظروف نشأتها ، و هو الذي يمد المعجميين بمعطيات تعينهم على إثبات "الوقت الذي ظهرت فيه الكلمة في النّصوص المكتوبة"(3) ، فيذلل لهم بعض الصعاب، إذ ليس من السّائغ إيجاد الأصل الأوّل الذي تكوّنت منه اللفظة لدروسه من الواقع اللّغويّ الموجود بالفعل، و هو ما يجعل الباحث مضطرا . إن لم يجده مثبتا و مؤرّخا أن يُبيّنه من خلال خبرته بالتّطوّر الصوتي و الشّكليّ و الدّلاليّ للكلمات.(4) من أجل ذلك حقَّ للتّأثيليّة أن تكون مقاربة تعاقبيّة(Diachronique) تهتمّ بـ"أصل الكلمة ذات الشّكل و المعنى اللّذين يمكن أن يكونا مرتبطين بكلمة أكثر قدما، و هي أثلتها (Etymon) التي تنتمي إلى اللّسان و قد لا تكون"(5) منتمية إليه أصالة.

و بهذا تبرز ضرورة أن يهتم العمل التأثيلي بدلالة المفردات كما يكلف بشكلها ، و ربما كانت تلك من انشغالاته الأساسيّة، فلطالما كانت التّأثيليّة عند كثير من الباحثين وسيلة إلى الوصول إلى المعنى الحقيقي للكلمة الذي ينحصر في معناها الأصليّ الأول قبل أن تَتقلب في حقول دلالية أخرى، و لعل "هذه الفكرة نفسها [كانت] مستقرّة في أذهان أولئك الذين اصطنعوا مصطلح التّأثيليّة (Etymologie) [الأجنبيّ] من الإغريقيّ "étumon" الذي يعني حقيقيّ"(6)، و هذا ما اعتبره الطيّب البكوش متطابقا مع دلالة صيغة التّأثيل في العربيّة، والتي هي- الرّجوع إلى الأصل الأصيل.(7)

و هكذا يتسع مفهوم التّأثيليّة إلى "دراسة نشأة الكلمات و تطوّرها، من أجل الوقوف على البنية الأصليّة لها و الصّيغ التي تفرّعت عنها صوتيا أو صرفيا أو دلاليا، و على الانتماء اللّسانيّ أو الحضاريّ للمفردة"(8) ، فتزداد مهامّها مشقّة لِما يتطلّبه كلّ من إعادة بناء الأصول الغابرة ووضع تاريخ محددّ لظهور الكلمات في اللّسان من جهد مما تحتاج إليه الأولى من إلمام بقوانين التّطوّر الصّوتي و الشّكلي و الدّلاليّ للمفردات و ما رافق مسار الكلمات من معطيات تاريخيّة و ما تستلزمه الثانية من قراءة شاملة للنصوص العلميّة و الأدبيّة و الدّينيّة لمعرفة الوقت الذي تشكّلت فيه الكلمة و دخلت هذا الحقل الدّلاليّ من اللّسان أو ذاك . و مع هذا فإنّ تحمّل هذا العناء لا يضمن للباحث الدّقّة في تأريخه لأنّ "ظهور كلمة من الكلمات في نظام لسان من الألسن يسبق في أغلب الأحيان الاستعمالات المسجّلة [...] لذلك فإنّ التّواريخ التي نجدها [...]

نسبيّةٌ تقريبيّةٌ تسجّلُ أوّلَ استعمال مكتوب بينما المقول أسبق من المكتوب."(9) و ربّما كان هذا السّبق بمدّة طويلة خاصّة إذا تعلّق الأمر بلسان تمتدّ جذوره إلى غابر الزّمان كاللّسان العربيّ.

و من قلة الوسائل المعِينة على التيقّن من الحقيقة، فإنّ التّأثيلية ـ على الرّغم من بحثها عن حقيقة الكلام، و بالتّالي حقيقة الفكر الإنسانيّ ـ تتوغّل في المجهول حتى إنها لتبدو بحثا شبه ميتافيزيقي، و هو ما أدّى بأحد أكفإ المعجميين الفرنسيّين ـ في تقديري على الأقل ـ "بيار غيرو" (Pierre Guiraud) إلى اعتبار التأثيليّة علم الاحتمالات.(10) و إنّه لشيء عُجاب أن يجتمع العلم و الاحتمال في عبارة واحدة لدى هذا الباحث المقتدر ! فقد جعل عمل التّأثيليّ جانحا إلى الخيال و التخمين أحيانا ، و ملزَما بالوقوف عند التّحقيق العلمي في الوقت نفسه، و بهذا تتسع التأثيلية إلى أن تكون علما وفنّا معا ، فحق – إذن – لرشاد الحمزاويّ أن يقول عنها إنّها "علم حديث، صعب المراس؛ إنجازاته جليلة، لكنّ مهاراته نابعة من الخلافات القائمة حول نسب و حسب الألفاظ المدروسة، لاسيما إذا كان ذلك مرتكزا على فرضيات لا تؤيّدها نصوص و لا حفريات."(11)

و قد تكون التّأثيليّة الفرع اللّسانيّاتي الوحيد الذي يسمح باجتماع العلم و الفنّ؛ فهي علم من حيث أنّها تخضع لمقاييس دراسيّة، غير أنّها حين تبتعد عنها أحيانا و تبيح شيئا من الحدس و تَمَثُّل الحقيقة بما قد يشبه الفراسة و التّوقّع و التّصوّر، هنالك يمكن وصفها بأنّها فنّ . و قد تمثّلت هذه الازدواجيّة في أعمال أكثر التّأثيليّين رسوخا و تحقيقا.(12)

ولعل هذا مما جعل الواقفين على باب التّأثيليّة من الباحثين قليلا ، وليس ذلك من ضآلة نفعها قطعا. بل إنّ الدارس كلّما تعمّق في حقيقتها أدرك أهمّيتها و جزيل عطائها من خلال تعدّد مجالاتها، إذ "التّأثيليّة، بمدلولها الحديث، حياة الكلمة [Biographie] و ما ميلادها الذي اهتمّت به التّأثيليّة القديمة قصرا، سوى نقطة انطلاق."(13) فقد اغتدى اللّسان المعاصر حصيلة لمسار تطوّر صوتيّ و شكليّ و تركيبيّ و دلاليّ، يوشك أن يمحو ملامح صورته الأولى، ممّا يجعل التّأثيليّة "علم أثريّات لغويّة يستهوي العقل متحدّيا له أن يصل إلى أصول معاني الكلمات"(14) فيقف على عناصر لغة قديمة تكون بالنّسبة إلى اللّسان المتداول اليوم"حفريّات(fossiles)صرفميّة*(morphonologiques)أوتشاكليّة(morpho- -syntaxiques)، شاهدة على وضع سابق للّغة."(15)

و قد ضرب"ألان راي" (Alain Rey) مثلا غير بعيد عن هذا الذي سبق، حيث جعل الكلمة "كالوجه الذي محا الزّمن بعض ملامحه، و تدعو نسبة الشّبه فيه إلى البحث عن عائلة صاحبه و التّعرّف إلى أبويه ، و هذا البحث يستدعي بحثا آخرَغيرَه ؛ إذ الكلمات كالعائلات يجب الوقوف على قصّة حياتها قبل التّوصّل إلى أصلها."(16)

و هكذا يجد المعجميّون أنفسهم ـ ضمن العمل التّأثيليّ ـ مضطرّين إلى اتّخاذ منحى تاريخيّ في دراستهم، يدعم البحث عن الأصل الأوّل (الأثلة: Etymon) للكلمة، و يصدّق مآلاته.

المقاربة التاريخية للتأثيلية:

إذا كان التّوصّل إلى أصل الكلمة و ميلادها لايمثل سوى نقطة انطلاق في الدّرس التّأثيليّ ـ كما سبق ـ ، و إذا كان هذا ما أهمّ الباحثين قديما ؛ فإنّ التّأثيليّة تعني "بالمعنى الحديث رسم حياة الكلمة (Biographie du mot)."(17) و قد تبلور هذا المفهوم بصفة بارزة بعدما أثار "دي سوسير" (De Saussure) فكرة التّمييز بين علمين للغة: آني وصفيّ (Synchronique)، و تعاقبي تطوّري (Diachronique).(18) و هو ما وسّع الآفاق اللّسانياتية في كلّ الاتّجاهات مع مطلع القرن العشرين و "حمل المعجميّ على أن لا يكتفي بمعرفة أصل الكلمة، و إنّما صار يحرص على "معرفة المسار الذي اتّخذته المفردة، و التّغيّرات المتعدّدة التي تعرّضت لها أيضا."(19) و من آثار هذا التّحوّل أن اعتبر "أنطوان ميّي" (Antoine Meillet) السّؤال

الذي اعتاد العامّة توجيهه إلى اللّغويّ، و هو: "ما أصل الكلمة؟" سؤالا لا معنى له، ذلك أنّ "الأساس في معجم تأثيليّ، بيان المسارات التي انتهجتها الكلمات [و أضاف ميّي Meillet، أنّه] من أجل تأثيل كلمة، يجب [...] معرفة كيفيّة دخولها إلى اللغة [...] و في أيّ الأوساط استُعملت."(20)

و لم يُتَح لأيّ فرع من فروع اللّسانيات أن يتبوّأ من التّاريخ منزلة كالتي بلغتها التّأثيليّة ؛ فهي تمارس العمل التّأريخيّ فعلا، حتّى قال "ميّي" (Meillet):" إنّ تأثيل رصيد معيّن، هو وضع تاريخ لهذا الرّصيد اللّغويّ بين حقبتين."(21) و قال في تقديمه لمعجم تأثيليّ (Etymologique) فرنسيّ:" اللّسانياتيّ الحديث الذي يؤثّل لا يبحث عن المعنى[...]، لكن يجتهد في تتبّع تعاقب الوقائع [...] التي أخذت الكلمة من خلالها شكلها و قيمتها. و في مثل هذه المادّة فاللّسيانياتيّ مؤرّخ و ليس إلاّ مؤرّخا."(22)

و التّأثيليّة في مِراسها للتّاريخ تأخذ منه أحيانا و تضيف إليه أحيانا أخرى و ممّا تأخذه ما يتعلّق بالوقائع و الأحداث التي أدّت إلى انتقال الكلمات من لغة إلى أخرى(23)، أمّا ما تضيفه التّأثيليّة إلى التّاريخ نفسِه إنّما يحصل من خلال تحقيقها أحد أهمّ أهدافها و هو إعادة تركيب تاريخ الكلمات انطلاقا من أصل استعمالها الأوّل و مرورا بتوجّهاتها المختلفة. و قد قدّم المعجميّ الفرنسيّ "بيار غيرو" (Pierre Guiraud) في كتابه: "صيغ تأثيليّة للّغة الفرنسيّة" (Structures étymologiques du lexique Français) نماذج و أمثلة على ذلك منها: ما توصّل إليه بتتبّع مسار كلمة (poubelle) حيث تحقّق من أنّ اللّفظ دخل الحقل الدّلاليّ لسلاّت المهملات و فضائل المنازل سنة 1884 حين فرض المحافظ "بوبال" (Poubelle) على سكّان مدينة باريس استعمال علبة للقمامات اتُّخِذ اسمُها من اسم الآمر باقتنائها في البيوت.(24) و بهذا يكون تأثيل الكلمة قد جلّى حقيقة لغوية ربما جهلها الفرنسيّون المعاصرون ، و أمدّ التاريخ بحدث يدخل ضمن تسيير المدن الكبرى خلال القرن التاسع عشر، ما كان لأحد أن يعرفه لولا أن تأثله المتأثلون من علماء اللسان الفرنسي .

كما تضيف التّأثيليّة إلى التاريخ حينما تأخذ على عاتقها التأريخ للمفردات من حيث ظهورها و لغات من حيث مساراتها بين حقبتين محدّدتين ؛ فهي ،ضمن مباحثها هذه، تقدّم معلومات عن الأشياء و النّاس قد لا تسترعي مؤرّخا محترفا. و لا جَرَم أن يكون لدراسة تطوّر اللّسان هذا الفضل، فإنّه "يمكن التّأريخ لعلاقات الشّعوب من خلال مقارنة معجم ألسنتهم."(25) لذا أكّد "ألان راي" (Alain Rey) قائلا: إنّ "تاريخ كلماتنا، هو تاريخ ثقافتنا: و فكرنا الجماعيّ."(26)

وبهذا يمكن جمع أهداف التأثيلية في إعادة إنشاء تاريخ الكلمات منذ تكوُّن صورتها الأصلية إلى بلوغها صيغتها المعاصرة ، ممّا يجعل التأثيل من الناحية العملية يقوم على المقارنة بين الصيغ و الدلالات و يتابع تطوّرها ليتدرّج مع مسارها اللغوي فرعا بعد أصل. وهو ما جعل المقاربة التاريخية آخذة بحظّ وافر من البحث التأثيلي، بمنهجيتين كانتا سائدتين: "المنهجية الصوتية التاريخية، المتولّدة عن النحو المقارن في أوربا في أواسط القرن [التاسع عشر] [...] و المنهجية المعجمية التاريخية [...] و هي لا تقارن صوتيا ظواهر مفردة كالأولى، و إنما تقارن جميع الصيغ و جميع الدّلالات التي تشترك في صفات تجعل منها مجموعة متميّزة."(27) و من هنا استنتج "بيار غيرو" (P. Guiraud) أن التأثيلية ترتكز على أساسين هما: تحديد الأثلة، و بيان طبيعة العلاقة بين الأثلة و مشتقاتها.(28) و في إضافة "غيرو" لعنصر العلاقات بين الصيغ توجّهٌ بالدرس التأثيلي إلى النظام الداخلي للسان، و إضافة أرضية ثالثة مهمة تدعم الاثنتين اللتين أفرزتهما المنهجية التاريخية: حياة الكلمة، و التأريخ لها، و من هذا المفهوم استلهم الطيب البكوش

فكرة رسم المقاربة التأثيلية هرما ثلاثيا: قمّته التأثيل و قاعدته تاريخ الكلمة وحياتها و علاقاتها.(29)

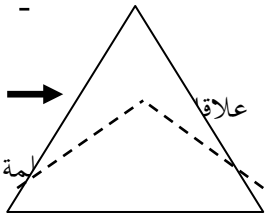

و من التأمل في هذا الشكل يمكن إدراك الحاجة الملحّة إلى وضع منهجية ثالثة تقوم على التحليل الداخلي لتأخذ إحدى قواعد هرم التأثيلية، و هي علاقة الكلمة بغيرها داخل النظام اللساني، حقّها.

ولعل اللّغوي الفرنسي "بيار غيرو" (P. Guiraud) يكون قد سبق إلى ذلك من خلال إثارة مقاربة بنَوية (Structurale) في كتابه صيغ تأثيلية للغة الفرنسية (Structures étymologiques du lexique français) الذي انطلق فيه من ملاحظة أنّ التأثيلية (étymologie) تسمح بالجمع بين المقاربتين: التطورية (Diachronique) و الآنية الوصفية (Synchronique)، مما يجعلها قائمة على منهجيتن متقابلتين: "الأولى تحليلية تطورية، و الثانية نظامية آنية داخلية"؛(30)فبعد تحقيق التأثيل غايته الأولى، و هي إيجاد الأصل الأول للكلمة، يتجه إلى ملاحظة أن الكلمة "تتموقع ضمن سلسلة من الألفاظ تحمل الخصائص الدلالية نفسها".(31)

و يقصد بالخصائص الدلالية ههنا الحقول التي تنتمي إليها الكلمة، و التي تكون التسمية فيها مبنية على صفة الشيء أو علاقته بغيره، و هو ما يتضح من المثال الذي قدّمه "غيرو" (Guiraud) و هو يشرح منهجيته المقترحة، و يتعلّق الأمر بالاسم الفرنسي لطائر السُّمانى (La grive) الذي ربط اسمه بلون زخرفته (gris) مما يحتم ـ على حدّ قوله ـ: "أن يُهتمّ بكلّ الأسماء المعيِّنة للحيوانات، و خاصة الطيور المزخرفة."(32) و من العجيب أن يجد هذا التطبيق نظيرا له في اللسان العربي متعلّقا باسم الطائر نفسه الذي عرّفه الخليل بن أحمد بقوله: "و السّمانى: طائر يشبه الفرّوجة، الواحدة: سماناة." ثمّ يقول بعد هذا مباشرة: "السُّمّان: هذه الأصباغ التي يزخرف بها."(33) و لولا أنّ صاحب كتاب العين لم يصرح بأية علاقة بين "السُّمانى" و "السُّمّان" في وضع الاسم الأول، لاعتُبر هذا بِدارا منه سبق فكرة "غيرو" (Guiraud) بما يزيد على ثلاثة عشر قرنا. هذا وإنه بحسب الخليل من الفضل أن يثير الانتباه إلى ذلك في القرن الثاني للهجرة من خلال إتباعه إحدى الكلمتين الأخرى في معجمه الفريد .

و مما لاحظه "غيرو"(Guiraud) وهو يعالج الأساس التطوّريّ للكلمات من نشأتها إلى تقلُّبها في حقول دلالية عددا أن مسارها يقف الباحثَ أحيانا على لمسة ثابتة في النماذج التي ترافق تطورها،(34) مثل النزعة المجازية التي تسمح بتسمية الحيوان المزخرف بحسب زخرفته الطبيعية، أو تلك التي أَدْمَجت الخبز في حقل المال (أو الرزق) في قول النّاس: "أعمل من أجل الحصول على الخبز." فهي ظاهرة باقية تتجاوز الأحداث التاريخية و تدعو إلى التوقف و التأمل بدلا من الانشغال بالسير حرصا على اللحاق بالركب التطوري للغة من دون أن تستوفي حقها من الوصف المدقق. وهذا من النظام الداخلي للسان الضابط لعملية التوليد اللغوي بشقَّيْها الشكلي والدلالي، والذي لا يستغني عن أساس آخر خارجي يجعل التسمية اللغوية راجعة إلى عوامل غير التي ينبني عليها نظام اللسان كشكل الأشياء و لونها

و وظيفتها... غير أن الملاحظ أن هذه التسمية، و إن انتهى بها التأثيل إلى عامل خارجي، فإنّ هذا لا يَستبعد كليةً وجود المسوّغ الأنموذجي (كاعتماد المجاز ـ مثلا ـ) المنبثق من داخل النظام اللغوي.

كل هذا يجعل المنهجية التحليلية التطورية الخارجية غير مصطدمة مع المنهجية النظامية الآنية الداخلية وما ينبغي لها. و كل قول بتدافع هذين الطرفين قد يوقع الدرس التأثيلي في تناقض مشين تأباه طبيعته التي تسَع مقاربات شتى و تستنفر علوما متعددة لتحقق التأثيلية غايتها، و هذا ما جعل "غيرو" (Guiraud) يقول مستخلصا: "يبدو أن كُلا من التعليلين [motivations] الداخلي و الخارجي ضروري، غير أن أحدهما ليس كافيا وحده، و إنما تتكون الكلمة الجديدة من تمازج عناصرهما."(35) و كأنّ نشوء المفردات (الذي هو داخلي في النظام اللغوي) يتربص بالوقائع(التي هي خارجية من صنع التاريخ) لتتجسد الدلالية (Le sémantisme) الكامنة في الأنموذج اللغوي، و تتضح هذه الظاهرة اللغوية أكثر من خلال تأمل الفكرة الخليلية العبقرية الرابطة بين المهمل و المستعمل، أي الموجود بالقوة (داخل النظام)، و الموجود بالفعل (بإحداث المتكلمين له احتياجا إليه).

أفضت محاولة طرح توجّه المعجميّ الفرنسي "بيار غيرو"(P. Guiraud) إلى طرح منهجيتين إحداهما: تحليلية، تعاقبية، خارجية، و الأخرى: نظامية، آنية، داخلية، إلاّ أنّ رؤيته لهما لم تقم على التناقض و الضدية، بل كان أقرب إلى القول بتكاملهما منه إلى جعلهما طرفين متناقضين، و هو محقّ في ذلك. و من هنا أمكن اعتبار أسس كلّ من المنهجين مُجَلّيّة لثنائيات توضّح كلّ منها الأخرى بدلا من أن تعارضها، و هذه الثنائيات المتقابلة المقترحة هي:

تحليـليّ / نظامـيّ

خارجـيّ / داخلـيّ

تطـوريّ / آنـــيّ

منهجية خارجية / منهجية داخلية

و يلاحظ في هذه الثنائيات تداخل ما هو تاريخي(من خلال: تحليلي . خارجي . تطوّري) مع ما هو لسانياتيّ (من خلال: نظامي . داخلي . آني). و تظهر مساحة هذا التداخل على مستوى الخطاب (discours) الذي "يستحدث الكلمات بواسطة مواد يمدّه بها التاريخ فيستعمل هذه الكلمات بحكم حاجيات عرَضية، و لكن طبقا لنظام قوالب معجمية."(36) فكأنّ نشوء الكلمة ـ كما قال "غيرو" (Guiraud)ـ:" نتيجة تصادم، و ضغط من التاريخ على النظام."(37)

و ليس وجود النظام وحده بكاف لتكتسب الكلمة قيمة في داخله، و إنما يحصل لها ذلك من خلال علاقاتها بغيرها، لأنّ "الكلمات تتجمّع في الذاكرة في شكل شبكات معجمية متعدّدة. و هذا التشابك مزدوج إذ يمكن للكلمة الواحدة التواجد في عدّة شبكات حسب نوع العلاقة سواء أكانت دلالية أم صرفية أم صوتية."(38)

و هكذا يتدعّم أحد أسس قاعدة هرم التأثيلية ليكون لها أثر في الدلائل (Signes) اللغوية، و تصير الأثلة (Etymon) "الطرف الثالث الوسيط بين الدالّ و المدلول"(39)، و بهذا يحصل التكامل بين الآنية و التطورية، و تسمح التأثيلية (Etymologie) الحديثة " بالمقابلة بين المعجمية التاريخية و المعجمية البنوية"(40) اللتين لا يُخفي "بيار غيرو"(P. Guiraud) رغبته في الدعوة إلى التقريب بينهما(41) فيزول التناقض بين التعاقبية و الآنية نهائيا، و بالتالي يلتقي النظام مع التاريخ، و تتقارب الاعتباطية (Arbitraire) و التعليلية (Motivation).(42) و هذا ما عملت البنوية (Structuralisme) على ترسيخه، مما يرشّحها لتكون المقاربة الأكثر نجاعة لتأثيلية حديثة قادرة على تجسيد أصناف تأثيلية (و هي معجمية أيضا) تضمّ مجموعة الكلمات ذات الخصائص المعنوية (المدلولات) والشكلية (الدوال) المشتركة.(43)

كانت طريقة الطرح بالنسبة إلى البُنى الدّلالية التأثيلية قائمة عند "بيار غيرو" (P. Guiraud) على تطبيقات مختلفة، ركز فيها على تسمية الحيوانات وبخاصة الطير والسمك، محاولا إيجاد قاسم مشترك لتسميتها بناء على بعض خصائصها الشكلية. وقد

بدا في هذا كلّه مدفوعا من اعتقاده"أنّ التلاقي بين شكل الأصناف الدالة(Signifiants)،وأصناف المدلولات، هو الذي يؤسس للتأثيلية."(44) وهذه الرؤية هي التي ما أُلهِمَها الطيب البكوش لما اعتبرأنّ الأثلة "(Etymon) طرف ثالث وسيط بين الدّالّ و المدلول، واهتدى بها إلى تشكيل المثلّث الآتي :(45)

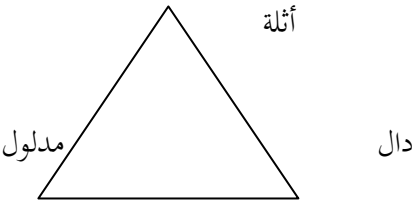

غير أنّ اللاّفت للانتباه في بحث بيار غيرو (P. Guiraud) عن بنية دلالية يمكن أن تقدّم صيغة تأثيلية أولية للّسان الفرنسي أنّه اقترح فكرة جديدة بالنسبة إلى دراسات من سبقه تدلّ على عبقريته اللّغوية حيث قال: "يمكن عكسُ المسار بوضع جرد لصنف دلالي، و من خلاله، تحديدُ الشكل أو الأشكال التي تسمّى الأشياء على أساسها ."(46) و هذا طموح علمي كبير يُثري التأثيلية والتوليد اللغوي معا ، اعترف غيرو(Guiraud) نفسُه بأنه مشروع ضخم ممّا جعل غيره من اللغويين ـ في تقديره ـ ينأون عن تطبيق هذه الطريقة. غير أنّ الطفرة في تفكير"غيرو" تتجلّى في قوله: "نحن بحاجة إلى معجم معان."(47) و هو نداء لا يصدع به إلاّ من جمع بين رجاحة عقل المتأمّل و قوّة عاطفة الغيور على لغته . و إنه لمما تتعزى به العربية في محنتها المفتعلة؛ ذلك أنّ مما يبيض الوجوه في ميراث لغوييها الأقدمين سبقُهم إلى تأليف معجمات المعاني منذ ظهورالرسائل الخاصة الأولى ككتاب الجراثيم المنسوب إلى ابن قتيبة (ت 276هـ) و كتاب النّخل و الكر لأبي عبيد(48)، و انتهاء إلى معجمات المعاني المتكاملة الكبيرة ككتاب الألفاظ لابن السّكّيت (ت 244هـ)، و كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة، و المعجم الضخم لابن سيدَهْ المخصّص(49). غير أنّه ينبغي التنبيه إلى أنّ هذا التراث العظيم لما يستثمره العرب أنفسُهم في العصر الحديث الذي هم فيه أحوج إلى معجمات المعاني منهم في غيره إذ تأتيهم من الحداثة الغربية مصطلحات كثيرة تحضرهم معانيها و يُضنيهم البحث عن مقابل عربي لها، حتى إذا عجزوا استغاثوا بمن ليسوا بلسان مُضر بعارفين فأضلّوهم بغير علم، أو تبنّوا اللفظ الأعجمي من دون تعريب.

وبعد هذا الطرح لجانب من التأثيل الدلالي من منظور المعجمية الغربية الحديثة، وهو أمر يحتاج إلى فضاء أوسع ليأخذ بعض حقه ، وليس هذا المقال بكاف ذلك . غير أنّ الذي يمكن الاطمئنان إليه أنّ ما سبق طرحُه يُفضي إلى جعل التأثيل الدلالي قائما على أسس من أهمها :

ـ ضبط فترة ظهور المفردة أو دخولها حقلا دلاليا عينَه ، وما يرافق ذلك من معطيات .

ـ ضبط جانبها النطقي والشكلي وتتبيُّن معناها الأول .

ـ تسجيل كل تغير دلالي وتوثيقه بتاريخه .

وهذه الأسس الثلاثة ،وإنْ جاءت بها المعجمية الحديثة، قمينة أنْ تتجلّى بعض معالمها في المعجمات العربية القديمة لاسيما كتاب العين ؛ فهو أولها ظهورا وأعتقها مادة وأكبرها أثرا فيما تلاها .

وفيما يأتي عرض لبعض المفردات التي وقف الخليل بن أحمد على جانبها الدلالي بما تهيأ له من معطيات في عصره ، وما سمحت به تقنيات معجمه اللغوي الموسوعي الذي لم يعدم سبقا و لم يَجْحَف تأثيلا .

وهذه الكلمات المؤثلة دلاليا مِن قِبل المؤسس الأول لعلوم العربية نماذج لما يختزنه معجمُه وليست حصرا له ، وربما يسّر قابلُ الأيام توفيتها حقها ضمن دراسات أوسع .

وقد رتبت المفرداة المنتقاة على حروف الهجاء اعتبارا لأولها .

. أوس:

قال الخليل :"أوس : قبيلة من اليمن ، واشتقاقه من آس يؤوس أوسا، و الاسم : الإياس ، وهو من العوض." (50)

أشار هذا التعريف إلى أصل إطلاق لفظ (أوس) وأنه اسم قبيلة ، ويتضمن هذا أنه اسم جدّ هذه القبيلة الأول الذي تسمت به ، مما يشير إلى قِدمه . كما تناول الخليل بيان الحقل الدلالي للكلمة الذي على أساسه اشتُق الاسم ، وهو العوَض . و كأنّ أوسا كان عِوضا لقومه عن غيره، أوعن كل شيء . وهو تنبُّه من الخليل إلى أصل اشتقاق الاسم.

ومع هذا فقد غفل التعريف عن تسجيل توقيت أول ظهور للكلمة ، وهو مما يكون فيه من يؤثل للعربية غير مُليم لامتدادها إلى زمن غابر موغل في التاريخ الأقدم للغات .

كما لم يذكر الخليل أي تغير لدلالة (أوس) ، مع أن بعض المعجمات تشير إلى أن هذا اللفظ أطلق على الذئب . مثلا . .

. بــرج:

قال الخليل : " والبَرج سعة بياض العين من حسن الحدَّقة ، وإذا أبدت المرآة محاسن جيِدها ووجهها قيل : قد تبرجت ، ومع ذلك [أي مرافقا له] ترى من عينييها حسن نظر." (52)

في هذا التعريف محاولة لبيان الدلالة الأولى للبَرج ، و هو صفة حسن في الوجه من اتساع العين و شدة بياضها ، ثم انتقلت الدلالة إلى إبداء كل المحاسن ، لكن ما يشبه الاستدراك في قول الخليل :"و مع ذلك ترى من عينيها حسن نظر"، يشير إلى مرحلة سابقة من التطور الدلالي كان اللفظ فيها متعلقا بتعمد إظهار المرأة حسن عينيها فقط ، وهو تعليل لاشتقاق فعل تبرَّج ، وبعد ذلك حصل له تعميم . و في هذا إشارة إلى أن شكل العين هو أصل مشتقات مادة (برج) جميعها ، ومنها جاء برج:" اتسع أمره في الأكل والشرب ."(53) والبُرج بمعنى الحصن .

. الحواريون:

قال الخليل :" والحواريون: الذين كانوا مع عيسى عليه السلام ينصرونه و كانوا قَصَّارين ، يقال : فعل الحواريون كذا، و نصر الحواريون كذا، فلما جرى على ألسنة الناس سمي كل ناصر حواريا ." (54)

أهم ما في هذا التعريف ربط ظهور الكلمة بالوقائع التي أدت إلى ذلك، و إن غاب تأريخها . فلفظ الحواريين كان يُطلق على محترفي دق الثياب و تبيضها ، ويغلب على الظن أنّ هذا لم يكن عند العرب ، و يبدو من خلال طرح الخليل لأصل الدلالة أن هؤلاء القصار المحوِّرون للثياب كانوا ذوي نشاط و مواقف في المجتمع مما جعل ذكرهم متداولا ، وربما تميزوا في مرحلة بنُصرة بعض المبادئ أو الناس، فاتَّخذ اسمهم المهني دلالة أخلاقية اجتماعية تمثلت في نَصر أهل الحق وأولهم الأنبياء والرسل . و هذا النوع من المعالجة لأصل الدلالة يسمى سرد قصة الكلمة (Histoire du mot) في المعجمية الحديثة .

. الزقــوم:

قال الخليل : " الزّقم : أكل الزقوم . ويقال الزقوم بلغة إفريقية ؛ الزبد بالتمر. (و لما نزلت آية الزقوم لم تعرفه قريش، فقدم رجل من إفريقية وسُئل عن الزقوم فقال الإفريقي: الزقوم بلغة إفريقية ، الزبد والتمر)(55). فقال أبوجهل : هاتي يا جارية تمرا وزبدا نزْدَقِمه فجعلوا يتزقمون منه و يأكلونه ، وقالوا أ بهذا يُخوِّفنا محمد [صلى الله عليه وسلم]، فبَيَّن الله في آية أخرى :﴿ إنَّا جَعَلْنَاها فِتْنَةً للظَّالِمينَ ، إنَّها شَجَرَةٌ تَخرُجُ في أصْلِ الجَحِيمِ.﴾(56) " (57)

يحمل هذا العريف تأثيلا لكلمة (زقوم) بتحديد لغتها و بيئتها الجغرافية الأصليين . وفي ذكر القصة فوائد منها :

. بيان قصة الكلمة (Histoire du mot) .

ـ المصدر الأول الذي استعُملت فيه وهو القرآن الكريم ، في قوله تعالى:﴿لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ، فَمَالِئُونَ مِنْهَا البُطونَ﴾(58)

ـ تحديد الفترة التي دخلت فيها الكلمة اللسان العربي ، وقد ذكرت في ثلاثة مواضع في القرآن ، كل آياتها مكية ، مما يساعد على التأريخ لظهور اللفظ في العربية بما يقع ما بين حوالي 611 م (سنة البعثة) و 624 م (بداية الهجرة) .

. الشـام:

قال الخليل: " الشأم : أرض سُميت به لأنها من مشأمة القبلة ." (59) لا يحتوي هذا النص على الكثير من جوانب التعريف التأثيلي ، وكل ما جاء فيه بيان علة تسمية الشام . غيرأنّ هذا الاسم قديم عند العرب ، و أمر القبلة لم يكن معروفا في الجاهلية ، وإنما كان التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس ، وهو ما فعله المسلمون أنفسهم أول الأمر قبل أن تتحول القبلة إلى بيت الحرام . والذي يمكن تصوره أن العرب في تحديد الاتجاهات الأربعة كانوا يواجهون مشرق الشمس ، وجهته هي المشرق ، و من كان على هذا الوضع كانت اليَمَن عن يمينه ومنه تسميتها بهذا الاسم ، والشام أشأم منه فجاء اسمها من هذا .

. العقيقـة:

قال الخليل : " العرب تقول : عق الرجل عن ابنه يعِق إذا حلق عقيقته و ذبح عنه شاة و تسمى الشاة التي تُذبح لذلك عقيقة [...] و من الحديث:

كل امرئ مرتهن بعقيقته . وفي الحديث : أن رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ عق عن الحسن والحسين بزنة شعرهما ورِقا. [...] العقيقة تُجمع عِققا . والعقيقة : الشعر الذي يولد الولد به . و تُسمى الشاة التي تُذبح لذلك عقيقة ، يقع اسم الذ بْح على الطعام ، كما وقع اسم الجزور التي تُنقع على النقيعة ، وقال زهير في العقيقة :

أ ذلك أم أقَبُّ البطن جَأبٌ عليه من عقيقته عفـاء

و قال امرؤ القيس :

يا هند لا تنكحي بُوهـة عليه عقيقتُه أحْسبـا

و يقال : أعَقَّت الحامل إذا نبتت العقيقة على ولدها في بطنها فهي مُعِقّ و عَقوق [...] وعقيقة البرق : ما يبقى في السحاب من شعاعه ، و جمعه العقائق ، قال عمرو بن كلثوم:

بسُمْر من قنا الخطّي لُدْنٍ وبيضٍ كالعقائق يَختلينـا . (60)

على الرغم من أن هذا التعريف لم يظهر عليه التدرج في انتقال الدلالة من الأقدم إلى الأحدث . فقد قدّم الخليل فيه مادة لغوية يمكن للمُطلّع عليها أن يرسم مسارا تطوريا للّفظ المعالج بين الجاهلية و الإسلام . فالعقيقة في الجاهلية ذات مدلولين :عقيقة البرق (شعاعه الباقي) وعقيقة الولد (أول ما بنيت على رأسه من شعر) .

و الشاهد على المعنى الأول لعمرو بن كلثوم ، أما الشاهد على الثاني فهو لزهير بن أبي سلمى .

وليس ثمة من سبيل إلى الحكم بقِدم أحد المدلولين بالنسبة إلى الآخر، لأن صاحبي الشاهدين من قرن واحد وكلاهما من ذوي المعلقات .

لكن العقيقة بمعنى الشاة التي تُذبح على المولود فهي من استعمال عصر صدر الإسلام ، إذ السُّنّة النبوية هي التي حَثَّت على أن يُعَقّ على المولود . وبهذا يمكن رسم تطور دلالة هذه الكلمة على النحو الآتي:

العقيقة: شعاع البرق (عمرو بن كلثوم) ←شَعر المولود (زهير) ← الشاة تذبح بعد حلق شعر المولود (حديث رسول الله – صلى الله عليه و سلم –) .

وهذا مسار لتطور دلالة الكلمة يمكن رصده وتصور أحقابه بما تضمّنه تعريف الخليل بن أحمد له ، ولئن فاته التأريخ الدقيق بالسنوات ، فإنه لم تفته ملاحظة التعاقب .

الهـــوامش :

1 – Aïno Niklas-Salminen: LA LEXICOLOGIE, Ed. Armand Colin/Masson, Paris, 1997; p.99

2 . يراجع: الحمزاوي، محمّد رشاد: المعجم العربيّ، إشكالات و مقارنات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1991، ص. 207.

3 - Aïno Niklas-Salminen: LA LEXICOLOGIE, p. 99.

4 . يراجع:الحمزاوي،محمّد رشاد:المعجم العربيّ إشكالات و مقارنات، ص. 207

et : - Alise Lehmann-Françoise-Barthet: INTRODUCTION A LA LEXICOLOGIE SEMANTIQUE ET MORPHOLOGIQUE, Ed, NATHAN/HER, 2000,Paris, 1998, p. 101.

5 – Marie Françoise Mortueux: LA LEXICOLOGIE ENTRE LANGUE ET DISCOURS, Collection CAMPUS, Ed. SEDES, Paris, 1997, p. 25.

6 – Jespersen Otto: NATURE, EVOLUTION et ORIGINE DU LANGAGE; Traduit de l'anglais par. L. Dahan et A. Hamm, Ed. PAYOT, Paris, p. 304.

7. يراجع: البكوش، الطيّب: بعض الإشكالات المنهجيّة الخاصّة بالمعجم التّاريخيّ العربيّ، مجلّة المعجميّة، العددان 5 و 6، ص ص. 390-391.

8 . حلاّم الجيلالي: تقنيات التعريف في المعاجم العربيّة و المعاصرة، رسالة دكتوراة، جامعة وهران، الجزائر، 1997، ص. 326.

9 . البكوش، الطيّب: بعض الإشكالات المنهجيّة الخاصّة بالمعجم التّاريخيّ العربيّ، مجلّة المعجميّة، العددان 5 و 6، ص. 390.

10 – Guiraud, Pierre: Structures étymologique du lexique français, Ed. PAYOT, Paris, 1986, p.08.

11 . الحمزاوي: المعجم العربيّ: إشكالات و مقاربات، ص. 208.

12 . من هؤلاء، مثلا، . الأستاذ "عبد الحقّ فاضل" في مقالاته المنشورة في مجلّة اللّسان العربيّ ، و "بيار غيرو"(Pierre Guiraud).

13- Alain Rey: Initiation à la linguistique: la lexicologie, Editions KLINCKSIECK, Paris, 1970, p. 154.

14-BAUDOUINJoseph :Etymologie dela langue arabe,Revue Bulag,N31,p.133

15-Marie Françoise Mortueux:La lexicologie entre langue et discours,p.24.

16-Alain Rey :Initiation à la linguistique :la lexicologie,p .154.

17-Ibid :p.153.

18- يراجع:دي صوسير (F.De Saussure):علم اللغة العام،ترجمة يونيل يوسف عزيز، ص.118-202.

19-Alain Rey :Initiation à la lhnguistique,p.154

20-Antoine Meillet :Linguistique historique et linguistique générale,Ed.CHAMPIONS,Paris,2ème édition,1982,p.292.

21- Ibid,p.292.

22-Dictionnaire étymologique de la langue française,O.BLOCH et W.V.WARTBURG,Press Universitaires de France,4ème Ed.1964,préface d'Antoine Meillet p.40.

23-Voir :Ibid,p.292.

24-Voir :GUIRAUD, Pierre :Structures étymologiques du lexique français,p.17

25- البكوش،الطيب:بعض الإشكالات المنهجية الخاصة بالمعجم العربي التاريخي،مجلة المعجمية،العددان5-6،ص.385.

26-Alain Rey :présentation de (structures étymologiques du lexique français,P.Guiraud),p.15.

27-البكوش،الطيب:المرجع السابق،ص.392.

28-Voir :P. Guiraud :Structures étymologiques du lexique français,p.17.

29-البكوش،الطيب: المرجع السابق،ص.392.

30-P. Guiraud : Structures étymologiques du lexique français,p.17.

31-Ibid,p.17.

32-Ibid,P.17-18.

33-الفراهيدي،الخليل بن أحمد:كتاب العين،تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي،دار الرشيد، بغداد،العراق ،1980، ج7،ص.274.

34-Voir :P.Guiraud,Structures étymologiques du lexique français,p.18.
35-Ibid :p.18.

36– البكوش،الطيب: المرجع السابق،ص.398.

37- "غيرو"(P. Guiraud): المرجع السابق،ص18.

38- البكوش،الطيب: المرجع السابق،ص.395.

39- المرجع نفسه:ص.398.

40- "غيرو":المرجع السابق،ص.21.

41- يراجع: المرجع نفسه،ص ص.17-21.

42- نفسه،ص.19.

43- نفسه،ص.20.

44- نفسه،ص.54.

45- البكوش،الطيب:المرجع السابق،ص.398.

46-"غيرو":المرجع السابق،ص.57.

47- المرجع نفسه:ص.57.

48- هناك من نسبه إلى الآصمعي،يراجع في ذلك:آل ياسين،محمد حسين:الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث،دار مكتبة الحياة،بيروت،لبنان،ط1400،1هـ/1980م،ص.316.

49- يراجع:المرجع نفسه،ص ص.291-329 .

50- الفراهيدي،الخليل بن أحمد :كتاب العين،ج 7،ص.329.

51- يراجع:رضا،أحمد:معجم متن اللغة،منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت،لبنان،1377هـ/1958م،ج1 ص.263.

52- الفراهيدي:المرجع السابق،ج6/ص.115.

53- رضا،أحمد:المرجع السابق،ج1/ص.263.

54- الفراهيدي:المرجع السابق،ج3/ص.288.

55- ما بين قوسين إضافة من التهذيب أخذه الأزهري من "العين" و أثبته المحققان في متن المعجم.

56- سورة الصافات ،الآية 63.

57- الفراهيدي:المرجع السابق،ج5/ص.94.

58- سورة الواقعة ، الآية 52.

59- الفراهيدي:المرجع السابق، ج6/ص 295.

60- المرجع نفسه، ج 1، ص ص. 62 – 63.